

عاش « صلاح » في هذا المجتمع ، واحس بمشاكل ابنائه العاطفية – كواحد منهم – وكان له قلب ، وكان على القلب ان يتحدث ، وكان حديثه قصائد عاطفية رقيقة قرأها متفرقة في الصحف والمجلات العربية، ثم عدنا وقرأها مرة اخرى مجتمعة في ديوانه الفريد : « الناس في بلادي » وهذا الجانب وحده من شعر « صلاح » هو الذي نتناوله في هذه السطور ، لايماننا بأهميته اولا ، ولايماننا ثانيا بأهمية تسليط الضوء على جانب واحد من جوانب العمل الفني حتى ينال هذا الجانب حقه من البحث والدراسة ، الشيء الذي لا يمكن استيفأؤه في الحديث عن إنتاج الشاعر ككل .

و « صلاح عبد الصبور » يؤمن بالحب كقوة خلاقة بناءة ، وانها ابعد ما تكون عن تخدير الناس وصرْفهم عن مشاكلهم ، فهي في حد نفسها مشكلة ، وهي كمشكلة ، لا بد من مجابهتها بصراحة حتى يمكن حلها ، ونتعرف الى غيرها من المشاكل ، هذا اذا نظرنا اليها على هذا الاساس النظري ، ولكن الحقيقة اننا نعتبر الحب ظاهرة خالدة ستبقى ما بقي الناس ، وافراد الشعب مهما بلغت حياتهم من خشونة وقسوة ، فهم لا يشعرون ان لهم قلوبا ، وان هذه القلوب تحب ، وتنفعل بمشاكل العاطفية ، حقا ان :

- « الناس في بلادي جارحون كالصقور ..
- « غناؤهم كرجفة الشتاء في ذؤابة الشجر ..
- « ويقتلون ، يسرقون ، يشربون يجشئون ..
- « لكنهم بشر »
- اجل انهم بشر ، ولذلك فهم :
- « يصنعون الحب ..
- « كلامهم انغام ..
- « ولفوهم بسام ..
- « وحين يسفون يشبعون من صفاء القلب ..
- « وحين يظماون يشربون نهلة من حب » ..

فصالح عبد الصبور اذن حين يتناول الحب في شعره لا يتناول شيئا منفصلا عن حياة امته ، وانما يتناول ظاهرة تعيش في وجدانها ، وينفعل بها ابناءؤها ، واذا كان صوت قلبه هو الذي يسمع من خلال هذه القصائد فليس معنى هذا انه يتناول المشاكل الفردية الخالصة ، فكونه واحدا من افراد هذا الشعب يجعل من مشكلته الخاصة مشكلة عامة .

واهم خاصية في حديث القلب انه بسيط ، وبساطته هذه ضرورية ، فهو صادر من القلب ، وموجه الى قلوب ، والقلوب بعيدة كل البعد في احاديثها عن التعقيد ، وهي لا تفهم من الاحاديث الا ما كان بسيطا عذبا ، فليس بينها وبين بعضها وساطة من علم او عقل ، فالتعقل والمنطقية يفسدان حديث العاطفة ، وكلما كان هذا الحديث بسيطا وخاليا من الصنعة ، كان حظله من الخلود اعظم ، وقدرته على البقاء اشده . وفي استطاعتنا ان نرد الى هذه الظاهرة ما نراه من شيسوع الكثير من القصائد العاطفية القديمة بين الناس ، وما نلمسه في هذه

آفة التطرف في اي لون من الوان النشاط البشري يحدث ردود فعل عتيقة تكاد تؤدي به بأسره ، وهذا التطرف مرده الى التزمّت في تطبيق فكرة من الافكار ، او التعصب الاعمى للمذهب من المذاهب ، مما يؤدي الى البعد عن جوهر الفكرة او المذهب ، والى حجب كثير من جوانبها الحقيقية عن العين الفاحصة ، ولا يدع مجالاً الا لجوانب مفتعلة ، هي وليدة التأثر العاطفي الخاطيء ، الناشيء عن التعصب للشيء .

ومنذ فترة قصيرة ، مرت حياتنا الادبية بهذه المرحلة ، ولا تزال آثارها قائمة بيننا حتى اليوم ، ولكن بعد ان تخلت عن ظاهرة العنف التي كانت تسودها من قبل . فقد تعصب فريق من النقاد للمذهب الواقعي في الادب ، بحيث قصروا الإنتاج الفكري والفني على جوانب معينة من الحياة ، وقد فهم الشعراء – ربما عن خطأ لم يقصد اليه النقاد – ان الشعر لا يكون شعرا حقا الا اذا تناول النواحي الاجتماعية السيئة من حياة الناس ، وتفنى بالسلام العالمي ، وندد بكل من يعمل على اشعال نار الحرب ، وهذا الفهم الجزئي للمذهب الواقعي ، والتعصب له ، نتجت عنه نتائج سيئة ، فقد امتنع الشعراء الواقعيون عن التفني بمشاكلهم العاطفية الخاصة ، بل ورفضوا كل شاعر يتحدث في شعره عن مثل هذه الامور ، واعتبروه خائنا ومخدرا للشعب وصارفا اياه عن الاهتمام بمشاكله الكبيرة .

وفي هذه الفترة ، كان المذهب الواقعي هو البضاعة الرائجة فسي السوق الادبية ، وقد ترتب على ذلك ان انضوى تحت لواء الواقعية كل دعي وكل افاق ، وكل عاطل من اية موهبة فنية حقة ، وساد الحييصة الادبية لون من الوان الجفاف الفني والعاطفي ، وخرجت الى الوجود قصائد عقيمة جدياء ، كل حظ اصحابها من الفن قدرة على رص التنفيعات كيفما اتفق ، وحشد عدد من الشعارات المذهبية والصيحات الخالية من الفن والنزق .

وبصورة عامة كان الشعر في هذه الفترة خاليا من الشروط الفنية ، للعمل الادبي ، واختفى صوت القلب وسط هذه الاصوات الجافة ، والصيحات المذهبية الجوفاء .

وكان « صلاح عبد الصبور » احد قلائل فهموا الواقعية على حقيقتها، وفهموا انه توجد الى جانب مشاكل الناس العامة ، مشاكل فردية خاصة ، تكون في مجموعها ، هي الاخرى ، مشكلة عامة ، هي المشكلة العاطفية ، مشكلته ، ومشكلة كل انسان يعيش في مجتمع مثل مجتمعنا العربي ، لا يزال يعيش في ظل كثير من القيم الاجتماعية المختلفة والاخلاقية الجامدة ، هذا المجتمع يتأرجح بين مظاهر المدنية الجديدة ورواسب سنين طويلة من الحجاب والانعزالية الجنسية ، هذا المجتمع الضائع وسط مطالب العصر التحررية ، وطموح الانسان الى مجابهة احتياجات حياته بحرية وراحة ، وتقاليده اجتماعية تجذبه الى اغوار ماضيه البعيد بمشاليته الزائفة واخلاقياته البعيدة عن روح العصر .

✦ يراجع ديوان « الناس في بلادي » للشاعر – منشورات دار الاداب .

القصائد من قرب المعنى ، وبساطة الفكرة ، وسهولة الالفاظ ، ووفرة ما فيها من الشجنات الموسيقية والعاطفية .
ولا يكون حديث القلب ذا اثر في النفس الا اذا كان صادقا وليد عاطفة صادقة ولا شك ان الشعر المصنوع الذي لم ينشأ عن تجربة عاطفية حقة ، لا يصل الى القلب بسهولة ، والقلب المتلقي في وسعه ان يتبين اذا ما كان هذا الشعر العاطفي الذي يقرؤه او يسمعه صادقا ام مصنوعا، والنموذج التالي بما فيه من بساطة وسلاسة وصدق عاطفة يصل الى القلب مباشرة لانه جاء نتيجة تجربة عاطفية حقيقية :

((كان لي يوما اله وملأذي كان بيته))

((قال لي : ان طريق الورد وعرف فارتقيته))

((وتلفت ورائي ، وورائي ما وجدته))

((ثم اصفيت لصوت الريح تبكي ، فبكيت))

والشعر العاطفي عند ((صلاح عبد الصبور)) ينقسم الى قسمين :
القسم الاول : نجد فيه ان حديث القلب مجرد اطار لوضع فكرة مسن الافكار ، او الحديث الى الحبيبة في امر من الامور ، ونجد ذلك في قصائد مثل ((رحلة في الليل ، الملك لك ، لحن ، رسالة السى صديقة)) .

والقسم الاخر هو قصائد تدور في جوهرها حول موضوعات عاطفية خالصة ، فنحن لا نسمع خلال هذه القصائد الا صوت القلب وحده، ونجد ذلك في قصائد مثل سوناتا - الرحلة - اغنية حب - الوافد الجديد - الاله الصغير - اطلال - طفل - ذكريات - اغنية ولاء - حياتي وعود - غزلية - منحدر الثلج - الوعد الاخير - يا نجمي يا نجمي الاوحد - اناشيد غرام)) .

فاذا تناولنا قصيدة من قصائد القسم الاول ، مثل ((رحلة فسى الليل)) نجد انها مقسمة الى ستة مقاطع ، يحدث صديقتي في خمسة منها عن حياته وانطباعاته المختلفة ، فهو في المقطع الاول يتناول علاقته برفاقه ، ووحدته في الفراش مع الظنون والخاوف ، واصوات السكاري التي تصل اليه في حجرته وهم يلفظون في الطريق ويضحكون بانطلاق . وفي المقطع الثاني يقص لها حكاية طائرين حبيبين ينقض عليهما طائر مفترس فيمزقهما ويمزق سعادتهما معا . وفي المقطع الثالث نجد ((صلاح)) يخاطب صديقتي عن زائر رهيب غامض بروعه وبفزع ، وهو يذكرها بتزده وعدته بها ، ولكن كيف السبيل الى ذلك ومصيره رهن ارادة هذا الزائر الرهيب الغامض ، ولا ندرى هل يقصد الشاعر بهذا الزائر الموت الذي يهدده ، ام القدر بمعناه العام ، ام الخوف من الجهول .. وهكذا تمضي بقية مقاطع ((الرحلة)) ولا نسمع حديث القلب الا في مطلع كل مقطع حين يوجه الشاعر حديثه الى الصديقة . وفي قصيدة ((الملك لك)) يبدأ ((صلاح)) بسرد بعض الصمصماب التي صادفها في حياته قبل ان يلتقي بهذه الحبيبة :

((واوحدتي قبل ان تلتقي ..))

((بهذا المساء السعيد البعيد ..))

((باوت الحياة وارزأها)) ..

ولكنها ربما تساءلت : ولكن كيف - مع هذه الهوموم والمشايق - :

((ينور عينيك فيض سرور وحب)) ..

وهنا يجيب الشاعر على هذا السؤال بسرد الظروف التي سادت حياته والانطباعات التي تسربت الى اعماقه عنها ، والتي كونت شخصيته على هذا النمط من الايمان بالحياة والتفاؤل بها على الرغم من كل شيء .

وفي قصيدة (لحن) يوضح لنا الشاعر كيف يقوم النظام الاجتماعي ذو الفروق الطبقة حائلا بين الانسان وبين من يعشق ، فهو احب هذه العجارة التي :

((مدت من الشرفة حبالا من نغم)) ..

الا انه لا يمكنه ان يطمع فيها ، فيبينها من الحواجز الطبقة موانع صارمة فهي ((في القلعة تففو على فرش الحرير - وتذود عن النفس السامة بالرايا واللالي والطور)) ، وهي :

((في انتظار الفارس الاشقر في الليل الاخير)) ..

وهو ((ليس اميرا)) وانما واحد من الذين :

((... لا يملك الواحد منهم حشو قم ..))

((ويمرون خفافا كالنسيم)) ..

ومع ذلك فيقع على كاهلهم عبء كبير وثقيل ، وهو :

((... ان يولد في الظلمة مصباح وحيد)) ..

وفي قصيدة ((رسالة الى صديقة)) يقص علينا الشاعر في خطاب الى الحبيبة فترة من حياته قضاها في الفراش نهب المخاوف والاوهام و ((هلوسة)) المرض وخيالاته وكيف انه تهباً للموت ، واذا بخطاب من الحبيبة يصل اليه كان بمثابة :

((... القميص بين مقلتي يعقوب ..))

((انفاس عيسى تصنع الحياة في التراب ..))

((الساق للكميح ..))

((العين للضرب ..))

((هناءة الفؤاد للمكروب)) ..

وربما تكون قد اطلنا الوقوف عند هذا القسم من شعر ((صلاح عبد الصبور)) العاطفي ، وما ذلك الا لرغبتنا في توضيح كيف يمكن المزاوجة بين المشاكل العامة ، والمشكلة الخاصة في القصيدة الواحدة بشكل سليم .

اما القصائد العاطفية الخالصة ، فننقسم بدورها الى قسمين :
قسم يمكننا ان نطلق عليه ((قصائد تقليدية)) ويقسم ((سوناتا - رغم شكلها الافرنجي - ، الرحلة - الوافد الجديد - الالم الصغير - الاطلال - ذكريات - حياتي وعود - غزلية - منحدر الثلج - الوعد الاخير)) .

وقسم ثان يمكننا ان نطلق عليه ((قصائد جديدة)) ويقسم ((اغنية حب ، طفل ، اغنية ولاء ، يانجمي يانجمي الاوحد ، اناشيد غرام))

وتتناول قصيدة من القسم الاول مثل ((سوناتا)) فنجد انه ليس بها من جديد اللهم الا محاولة ادخال هذا اللون من بناء القصيدة الى الشعر العربي ، اما الافكار فشائعة ، ليس بها من جديد ، الا محاولة ادخال التعبير عن كفاح الناس في هذا اللون من النظم الشعري .

وفي قصيدة ((الرحلة)) ملامح عامة من شعر شعرائنا الرومانسيين بدون تحديد ، وكذلك في ((الوافد الصغير)) .

وفي قصيدة ((الاله الصغير)) نحس بروح ((محمد رشاد راحتى)) صاحب الديوان الرومانسي القيم ((مقابر الفجر)) .

اما قصيدة ((اطلال)) فننتقلنا الى اجواء ((محمود حسن اسماعيل)) :
اطلال . . اطلال

يمشي بها النيسان في كفه اكفان

لكل ذكرى قبر وبينها قبوري

اطلال . . اطلال

ناحت له صلوات واسترحمت عبرات

وتصدت النزوات في ثوبها الشعري

وفي قصيدة ((ذكريات)) ننتقل الى اجواء الرومانسية الغربية ، وخاصة عند الشعراء الانجليز ، و ((شيلي)) على وجه التحديد .

وقصيدة ((حياتي وعود)) ، اعتقد ان سائر القراء العرب يعرفون الصلة الوثيقة بينهما وبين قصيدة ((فدوى طوقان)) في رثاء اهلها .

اما ((تعابير علي محمود طه)) وصوره واساليبه فتكاد تنطق في

«الآداب» تقدم:

عددتها السنوي الممتاز

في مطلع العام الجديد ١٩٦١

وهو عدد خاص بـ

النقد الأدبي

دراسات معمقة عن النقد الأدبي
وعلم الجمال وحالة النقد في الوطن العربي
وفي بلاد الغرب، مع نماذج نقدية مختلفة

عدد ممتاز تتابع به «الآداب» مشاركتها
في تطوير المفاهيم الأدبية ورفع
مستواها في النتاج العربي المعاصر ..

يسهم فيه كبار النقاد والدارسين
في مختلف الاقطار العربية

احجز نسختك منذ الان .

قصيدة « غزلية » ، وكذلك في منحدر الثلج » و « الوعد الاخير » .
ويبدو ان « صلاح عبد الصبور » كان في بدء تكوينه الشعري
عندما كتب هذه القصائد ، فكان لهذا الاعتبار عرضة للتأثر بالرواد ، ولا
احسب ان هذا يقلل من مكانته الان كشاعر كبير ذي تأثير .

اما القصائد الجديدة حقا ، والتي يعتبر « صلاح » بسببها رائدا
من رواد الشعر الحديث ، فمنها « اغنية حب » التي اعتبرها بحق
فتحا جديدا في عالم الشعر العاطفي العربي .

« جيت الليالي باحثا » في جوفها عن لؤلؤة ...

« وعدت في الجراب بضعة من المحار ..

« وكومة من الحصى ، وقبضة من الجمار ..

« وما وجدت اللؤلؤة ..

« سيدتي ، اليك قلبي ، واغفري لي ..

« ابيض كاللؤلؤة ..

« ولامع كاللؤلؤة ..

« هدية الفقير ..

« وقد تربته يزينه عشبك الصغير » ..

واذا كان « صلاح » قد احتذى هنا حذو (نشيد الانشاد) ، فقد
سار على نهج الشعراء المتصوفة في قصيدة « اغنية ولاء » ، فهو قد
استعار اسلوبهم في مخاطبة « ذات الله » ، ذاتهم المشوقه ، في معالجة
ذاته الارضية « الحبيبة » ، ومحاولة الشاعر هنا انزال هذا
النمط من التعبير الشعري من سمائه الى ارض البشر البسطاء ، مع
الابقاء على نفس طريقة الصياغة والاسلوب ، والتفاني في العبود
والذوبان فيه ، ونفس شفافية الفكرة والالفاظ ، ففي هذه القصيدة صور
بعينها من شأنها ان تستحضر الجو الصوفي الى ارض الحسنة
مثل :

« صنعت لك عرشا من الحرير ... مخملي ... ومسندين تنكسي
عليهما .. اسرجت مصباحا .. علقته في كوة في جانب الجدار ..
خرجت لك .. على اوافي محمك .. كمثلما ولدت - غير شملمة
الاحرام قد خرجت لك .. اسائل الرواد » وهكذا ..

وقصيدة مثل (الطفل) تستمد قيمتها وكونها قصيدة رمزية ذات اكثر
من تفسير ، فالقاريء المتجمل لن يرى فيها غير مشهد حزين لرجس
وزوجته ازاء طفلهما الميت .

ولكن القراءة المتأنية تمكن القاريء من الخروج بمفهوم اخر للقصيدة،
فسرعان ما يكتشف ان هذا البيت الصغير :

« هذا الصبي ابن السنين الداميات العاربات من الفرح »

لم يكن الا حبا كان بين الاثنين ثم انتهى بالفشل ، حيث وسده قلبه
الكسر ، وسقى مدفته دمه .

ولا ادري لماذا لم تهزني قصيدة « يا نجمي يا نجمي الاوحد » ، ولعل
مرد ذلك الى ان القصيدة على الرغم من كونها قصيدة عاطفية ، فانك
لا تسمع فيها الا صوت العقل يفسر ويتفلسف .

« لفحت ايام الرعب رواءها حتى شاها - وذوي في عينها زهو
الظننة - المجد الكاذب - عريا وبزة هذا العصر المشهود - صفرا صفرا
حتى دقا - حتى صارا قزمين » .

وفي قصيدة « اناشيد غرام » نجد شيئا يستحق الاشارة ، هو انبات
« صلاح » بالدليل العلمي انه ليس من رواد الشعر الحديث فحسب ،
وانما في وسعه ان يكتب شعرا كلاسيكيا جيد السبل ، متين البناء ،
رصين التعابير ، حتى لكأنه واحد من الشعراء الفحول :

« ولت قلبي والاماني تعلقه رسا زورقي بعد الترحل يا قلبي »

« وما قد بدا الحب الكبير لناظري نفصت يدي مما عداه من الحب »

عبد المنعم عواد يوسف

القاهرة